ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو[1] ؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ؛ فهو وحده الذى له المُلْك ، وهو وحده القادر على كل شىء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يُخطِّطوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قَيُّوم[2] : لا تأخذه سنة[3] ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لَعلِمُوا أن الله يُملِّك بحق مَنْ يُظلم فوق الذى ظَلَمه .

ورأينا فى حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظُلْم الناس ؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ؛ وأشد هَوْلاً من مصيرهم لو تحكم فيهم مَنْ ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ[4] ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٢) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم . [لسان العرب ـ مادة : قوم] .

(٣) وسنَ يَوْسَنَ سنة : نام نومة خفيفة ، السِّنَة : الفعلة . قال تعالى : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : لا تأخذه نومة خفيفة ولا أى نوم ، أو لا تأخذه غفلة عن أى شىء ولا نوم من أى نوع ثَقُل أو خَفَّ كثُر أو قَلَّ . [القاموس القويم ٢/٣٣٨] .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٨٤) : « معناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . قال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد بلوغ الحلم » .

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

أى : وصل إلى غايته فى النُّضْج والاستواء ؛ ومن كلمة « بلغ » أُخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فَوْرَ أنَ يبلغ أشده ؛ ويصير فى قدرة أن ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش فى بيت ممتلىء بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إنْ لم يكُنْ محروساً بالحكمة والعلم ؛ ستتولد فيه رعونة[1] ؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والحُكْم هو الفيصل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الحُكْم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذى يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذى سيكون منه تأويل الرُّؤى[2] ، وغير ذلك من العلم الذى سوف يظهر حين يُولَّى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أَشُدَّه وحرسه الحق بالحكمة والعلم .

ويُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

وكل إنسان يُحسن الإقامة لِمَا هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

(١) الرعونة : الحمق والاسترخاء . والأرعن : الأهوج فى منطقه . [لسان العرب ـ مادة : رعن] .

(٢) الرؤى : جمع رؤيا : وهى ما تراه فى منامك . ورأى : بمعنى اعتقد وبمعنى عرف . ورأى فى منامه رؤيا : حلَم . والرؤيا : الحلم فى المنام . [القاموس القويم ١/ ٢٥٠] .

الحُسْن ، والمثل : حين لا يتأبى فقير على قَدَر الله أن جعله فقيراً ، ويحاول أن يُحسن ويُتقن ما يعمل ، فيوضح الله بحُسْن الجزاء : أنت قبلت قدرى ، وأحسنتَ عملك ؛ فخُذْ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف]

لا ينطبق على يوسف وحده ؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَر الله ؛ لأنه سبحانه ساعة يأتى بحُكْم من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعمِّم الحكم ؛ فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام.

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا فى مناسبة بعينها ، فإنه يقرر بعدها أن كل مُحْسِن يعطيه الله الحُكْم والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة[1] ، وهنا بدأت متاعبه فى القَصْر ، ففى طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل ؛ فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر ، فقد بدأت تدرك مفاتنه ؛ وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان

(١) الفتاء : الشباب . والفتى والفتية : الشاب والشابة . قال القتيبى : ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجَزْل من الرجال . قال الشاعر :

إنَّ الفَتَى حَمَّالُ كَلِّ مُلمة ... ليسَ الفتى بمُنَعَّم الشُّبانِ

[لسان العرب ـ مادة : فتا] .

بالعاطفة المشبوبة[1] ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتى النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه ؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا علّة غَضِّ البصر عن المثيرات الجنسية ؛ لأنك إنْ لم تغضّ البصر أدركتَ ، وإن أدركتَ وجدتَ ، وإن وجدتَ نزعتَ إلى الزواج أو التعفف بالكبْت فى النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإنْ لم تتعفف عربدتَ[2] فى أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدى النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ[3] أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ[4] مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

---

(١) شب النار والحرب : أوقدها . وشبَّة النار : اشتعالها . قال أبو حنيفة : حكى عن أبى عمرو ابن العلاء ، أنه قال : شبَّت النار وشبَّت هى نفسها ، قال ولا يقال : شابَّةٌ ، ولكن مشبوبة. [لسان العرب ـ مادة : شبب] .

(٢) رجل عرْبد وعربيد ومعربد : شرِّير مُشَارٌ ، ويقال للمعربد : عربيد كأنه شبه بالحية . [لسان العرب ـ مادة : عربد] .

(٣) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سُمِّى به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعول . قال تعالى فى قرآنه : ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. (٧٢) ﴾ [هود] وقال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ..(٢٢٨) ﴾ [البقرة] أى : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى ـ وبعد طلقة بائنة أو طلقتين بائنتين بعقد جديد . [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٤) الأرب : الحاجة التى تقتضى الاحتيال لها ، وكذلك الأربة والمأرب . قال تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ ..(٣١) ﴾ [النور] أى : غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى : الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم . [القاموس القويم ١/١٧] .

أى : الذى بلغ من العمر والشيخوخة حداً لا يجعله يفكر فى الرغبة فى النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو فى فتوته ، بعد أن بلغ أشُدَّه نظرة مختلفة ، يوضحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ[1] ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ[2] لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وساعة تسمع «راود» فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فَاعَلَ » أو « تَفاعل » ومثل : « شارك محمد علياً » أى : أن علياً شارك محمداً ؛ ومحمد شارك علياً ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمُرَاودة مطالبةٌ برفق ولين بستر ما تريده ممَّنْ تريده ؛ فإنْ كان الأمر مُسهَّلاً ، فالمُراودة تنتهى إلى شىء ما ، وإنْ تأبَّى الطرف

---

(١) غلق الباب يغلقه غَلْقاً : أوصده مثل أغلقه . وغلَّقه بالتضعيف للمبالغة فى إغلاق الأبواب وإحكامها ، كقوله تعالى : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف] أى : أحكمت إغلاقها لتأمن على نفسها من الداخلين . [القاموس القويم ٢/٥٩] .

(٢) هيَّأ الشىء : أعده وجهَّزه ويسَّره ، قال تعالى : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف] أى : يسِّر لنا من أمرنا طريق الرشاد والحق . وهئت للأمر : أعددت نفسى له ، وقرئ فى سورة يوسف عليه السلام (وهئتُ لك) أى : أعددت نفسى لك . و (هيت) : اسم فعل أمر بمعنى أقبل وتعال ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف] والمعنى : أقبل . واللام للتعدية ، أى : أدعوك لتقبل أو الدعاء لك . [القاموس القويم ٢/٣١١ ، ٣١٢] .

الثانى بعد أن عرفَ المراد ؛ فلن تنتهى المراودة إلى الشىء الذى كنت تصبو[١] إليه .

وهكذا راودتْ امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أى : طالبته برفق ولين فى أسلوب يخدعه ليُخرِجه عمَّا هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبْل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أشُده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبته أن يُحضر لها شيئاً ؛ وحين يقدمه لها تقول له « لماذا تقف بعيداً ؟ » وتدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك ؛ لأنه فى بيتها ؛ وهى مُتمكِّنة منه ؛ فهى سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات ؛ فهو قد تربَّى فى بيتها ؛ وهى التى تتلطف وترقُّ معه ، وفَهِم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بأدب رَاقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

وكلمة : ﴿ غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

توضح المبالغة فى الحدث ؛ أو لتكرار الحَدث ، فهى قد أغلقت أكثرَ من باب . ونحن حين نحرك المزلاج[٢] لنؤكد غَلْق باب ، ونحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غَلْق الباب .

---

(١) صبا يصبو : مال وأحب . قال يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يُغريننى به ، وصبا إلى اللهو : حَنَّ واشتاق إليه وصحبه . [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

(٢) الزُّلاج والمزلاج : مغلاق الباب ، سُمِّى بذلك لسرعة انزلاجه . وقد أزلجت الباب أى أغلقته . والمزلاج : المغلاق إلا أنه ينفتح باليد ، والمغلاق لا يفتح إلا بالمفتاح . [لسان العرب - مادة : زلج] .

فهذه عملية أكبر من غَلْق الباب ؛ وإذا أضفنا مزْلاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا أننا غلّقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فَقُصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليَلقى العظيم الذى جاء ليقابله .

ويحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذى رفض أن يبايع معاوية فى المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم فى دمشق .

هذا القصر الذى سبق أن زاره عمر بن الخطاب ؛ ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب[١] أنها أُبهة[٢] ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكتَ عنها عمر[٣] .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقى معاوية فَوْر الدخول ؛ لكن الحرس اصطحبه عبر أكثر من باب ؛ فلم ينخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضَنّ عليه بمناداته كأمير للمؤمنين ، وقال بصوت عال :

---

(١) الأريب : العاقل ، والإرب والأرب : الدهاء والبصر بالأمور ، وهو من العقل . وأصل الإرب : الدهاء والمكر . [لسان العرب ـ مادة : أرب] .

(٢) الأبهة : العظمة والبهاء . والأبهة : العظمة والكبر . ورجل ذو أبهة أى ذو كبر وعظمة . [لسان العرب ـ مادة : أبه] .

(٣) ذكر أبو على القالى فى أماليه (١٣٦/٢) : « قال المغيرة بن شعبة : كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : هذا كسرى العرب » .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

ففطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ فنجد أن امرأة العزيز قد غلَّقتْ الأبواب ؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستر فِعْله ، وهى قد حاولتْ ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون فى القصر ، وحدثتْ المراودة وأخذتْ وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يَستجبْ لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ..(٢٣) ﴾ [يوسف]

أى : أنها انتقلتْ من مرحلة المُراودة إلى مرحلة الوضوح فى طلب الفعل ؛ بأن قالت : تهيأتُ لك ؛ وكان ردُّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

والمَعَاذ هو مَنْ تستعيذ به ، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارتْ أسبابك أمام الحدث الذى تمرُّ به علَّك تجد مَنْ ينجدك ؛ فكأن المسألة قد عزَّتْ عليه ؛ فلم يجد مَعَاذًا إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم ؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبى ﷺ عقد على ابنة ملك[1] ؛ كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبى بالغيرة منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة رضى الله عنها : إنْ تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنَّا . وقالت للعروس : إن النبى يحب كلمة ما ، ويحب مَنْ يقولها[2] . فسألت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولى « أعوذ بالله منك » .

فغادرها رسول الله ﷺ وقال : « قد عُذْتِ بمعاذ »[3] وسرَّحها السراح[4] الجميل .

وهناك فى قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت لحظة أن تمثَّل لها الملاك بشراً سوياً[5] :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم]

فهى استعاذت بمَنْ يقدر على إنقاذها .

---

(١) جاء فى الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (٣/١٢٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (٣/١٣٩).

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٩/٣٥٩) : « وقع عند ابن سعد (فى الطبقات) أن عائشة وحفصة دخلت عليها أول ما قدمت فمشطتاها وخضبتاها وقالت لها إحداهما : إن النبى ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخل عليها أن تقول أعوذ بالله منك » .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

(٤) السراح : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : طلاقاً حسناً ليس فيه كيد ولا إيذاء . [القاموس القويم ١/٣٠٩].

(٥) السوى من الرجال : من ليس فى خلقه عيب وليس فى بدنه مرض ولا آفة . فقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ [مريم] أى : حالة كونك كامل الخَلْق لا خرس بك ولا بكم ولا أى عجز ، وقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم] مستوى الخَلْق فى صورة إنسان كامل جميل وضىء . [القاموس القويم ١/٣٣٩] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَايَ[1] إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ [يوسف]

وأعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحتْ ما تريد .

والمعنى الثانى : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ؛ ونجَّاه من الجُبِّ ؛ وهيَّأ له أفضل مكان فى مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشُدِّه .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا .

أو : أنه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ.. (٢٣)﴾ [يوسف]

ليُذكِّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها :

﴿أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ..(٢١)﴾ [يوسف]

فالصعوبة لا تأتى فقط من أنها تدعوه لنفسها ؛ بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكرم يوسف ، وتختار له مكانَ إقامةٍ يليق بابن ، ولا يمكن أن يُستقبل ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى .. (٢٣)﴾ [يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

---

(١) المثوى : اسم مكان أو مصدر ميمى ، قال تعالى : ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾ [آل عمران] اسم مكان قُصد به النار ، وقال تعالى : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ .. (٢١)﴾ [يوسف] أى : إقامته ، أى : أكرمى يوسف وعبَّر باسم المكان عن الحالّ فيه مجازاً مرسلاً علاقته المجازية . [القاموس القويم ١/١١٣] .

وتلك مَيْزة أسلوب القرآن ؛ فهو يأتى بعبارة تتسع لكل مناطات الفهم ، فما دام الله هو الذى يُجازى على الإحسان ، وهو مَنْ قال فى نفس الموقف :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

فمعنى ذلك أن مَنْ يسىء يأتى الله بالضد ؛ فلا يُفلح ؛ لأن القضيتين متقابلتان :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

و ﴿ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ(١) وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ(٢) رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ(٣) (٢٤) ﴾

---

(١) هم بالفعل يهم به هماً : قصده واتجه إليه بنيته ولم يفعله ، قال تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ .. (١١) ﴾ [المائدة] أى : عزموا واتجهت نيتهم إلى حربكم والتعدِّى عليكم وإيذائكم فكفهم الله . وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] همت به : هم عَزْم وتصميم . وهَمَّ بها هَمّ ترْك وإعراض ومقاومة . أى : هَمَّ بمقاومتها والله أعلم . [القاموس القويم : ٢/٣٠٧ بتصرف] .

(٢) البرهان : الحجة البينة الفاصلة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن رأى حجة ربه التى ثبتته على الحق وصرفته عما هم به - أو لولا أن رأى برهان ربه ، أى الدليل على قدوم سيده وحضوره ، وقدَّر الله مجىء سيده إلى البيت فى هذا الوقت ليصرف عنه السوء . [القاموس القويم ١/٦٥] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً نقياً طاهراً . واسم المفعول «مخلَص» بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف] أى : الأصفياء الأتقياء المطهرين . [القاموس القويم ١/٢٠٢] .

والهَمُّ هو حديث النفس بالشيء ؛ إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه. ومن رحمة ربنا بخلْقه أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدَّثتْه نفسه أن يفعلها ؛ ولم يفعلها كُتبتْ له حسنة[1] .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المراودة التى كانت منها ، والامتناع الذى كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُفَاعلة بين اثنين يصطرعان فى شيء .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله فى حقها :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ..(٢٤)﴾ [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه فى الآية السابقة موقفها حين قالت : « هيت لك » وكذلك بيَّن موقف يوسف عليه السلام حين قال يوسف «معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً ؛ وتساوى فى حديث النفس ؛ لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون فَهْمُنا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ؛ لأننا نعلم أن « لولا» حرف امتناع لوجود ؛ مثلما نقول : لولا زيد عندك لأتيتك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط فى الإيجاد والامتناع عن الذين يقولون : إن الهم قد وُجِد منه ؟

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان (حديث ٢٠٦) .

ولماذا لم يَقُل الحق : لقد همَّتْ به ولم يهم بها ؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطةَ المطلوبة ؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل ؛ وإنْ لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عِنِّين[1] أو خَصَاه موقف أنها سيدته فخارتْ قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يَهِمّ بها ؛ لكان المانع من الهَمِّ إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر طارىء لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهَمّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً ، وهو قد بلغ أَشُدَّه ونُضْجه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضَيَّعَتْ رجولته بغتة[2] ؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف ، حين لا يستطيع أن يَقربَ عروسه ؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهَمِّ على الإطلاق ؛ ومن غير شيء ، لَقَال : ولقد هَمَّتْ به ولم يَهِم بها .

---

(١) العنين : الذى لا يأتي النساء ولا يريدهن بيِّن العنانة . وعُنِّن عن امرأته إذا حكم القاضي عليه بذلك أو مُنِع عنها بالسحر . وامرأة عنينة كذلك : لا تريد الرجال ولا تشتهيهم . وسُمِّي عنيناً لأنه يعن ذكره لقبل المرأة من عن يمينه وشماله فلا يقصده . [لسان العرب ـ مادة : عنن] .

(٢) بغته بغتاً وبغتة : فاجاه على غرة وغفلة ، قال تعالى : ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون (٩٥) ﴾ [الأعراف] والمباغتة : المفاجاة والبَغْت والبغتة : الفجاة ، وهو أن يفجاك الشيء . [لسان العرب ـ مادة : بغت] .

ولكن مثل هذا القول هو نَفْيٌ للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهَمِّ راجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحى الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التى يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التى تعمل فى المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لُطْفِ الله بالخلق أنه يُوجد الالتقاءات التفاعلية فى المتساويات ، فلا تأتى عاطفة الخادم فى بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذى يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أى شىء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر فى أنه لو هَمَّ بواحدة من بنات الأسرة التى يعمل لديها ؛ فقد تطرده الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات فى كثير من الأحيان .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤) ﴾

[يوسف]

إذن : فبرهان ربه سابق على الهَمِّ ، فواحد هَمَّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه فى قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهى المسألة ، ولذلك فلا داعى أن يدخل الناس فى متاهات أنه هَمَّ وجلس بين شعبتيها[١] ، ولم يرتعد إلا عندما تمثَّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل[٢] ؛ فأفسقُ الفُسَّاق ولو تمثَّل له أبوه وهو فى مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الرأى ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة[٣] يوسف ؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأى : أتتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم ؛ امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزيز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفِكَاك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتى دَعتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلُّ هؤلاء تضافروا[٤] على أن يوسف لم يحدث منه شىء .

---

(١) فى الحديث : « إذا قعد الرجل من المرأة ما بين شعبها الأربع وجب عليه الغسل » شعبها الأربع : يداها ورجلاها . وقيل : رجلاها وشُفْرا فرجها ، كنى بذلك عن تغييبه الحَشَفَة فى فرجها . [لسان العرب ـ مادة : شعب] .

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وسعيد بن جبير : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٣٤٩٢/٤] .

(٣) رجل فحيل : فحل ، وإنه لبيِّن الفُحولة . غير خَصىّ بل هو مُنجب . [لسان العرب ـ مادة : فحل] .

(٤) تضافر القوم على فلان وتظافروا عليه وتظاهروا بمعنى واحد كله إذا تعاونوا وتجمعوا عليه ، وتألبوا وتصابروا مثله . قال ابن سيده : تضافر القوم على الأمر تظاهروا وتعاونوا عليه . [لسان العرب ـ مادة : ضفر] .

وقال يوسف نفسه :

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي .. (٢٦) ﴾ [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدِّقة لما قال :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ[1] .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

وقالت : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ[2] الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ[3] أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ .. (٥٢) ﴾ [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف]

وقال يوسف لحظتها :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

والصَّبْوة هي حديث النفس بالشيء ؛ وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبوة ؛ لأن الحق سبحانه قد قال :

---

(١) استعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسَّك بها . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ (٣٢) ﴾ [يوسف] أي : فامتنع متمسكًا بعصمته وعفة نفسه ويحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

(٢) حصحص الحق : وضح وتبيَّن بعد خفائه ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ .. (٥١) ﴾ [يوسف] . قال ابن منظور في لسان العرب : « الحصحصة : بيان الحق بعد كتمانه » . [مادة حصص] .

(٣) في قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها : أنه يوسف ، ومنها أنها : امرأة العزيز. قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٨١) : « هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة » .

﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ .. (٣٤) ﴾ [يوسف]

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتى تهامسْنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يَقُلْنَ :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ..(٣١) ﴾ [يوسف]

فحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات ؛ وللانفعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مُقدِّمات تدل على أن النسوة نَوَيْنَ له مثل ما نَوَتْه امرأة العزيز ؛ وظَنَنَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فيتلقفنه هُنَّ ؛ وهذا دَأْب[1] البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هى التى راودتْ يوسف عن نفسه ؛ فيدمدم العزيز على الحكاية ، ويقول :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أجبْنَ ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قُلْنَ :

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدَّأْب والدَّأَب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١) ﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. (٤٧) ﴾ [يوسف] أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب . وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ.. (٣٣) ﴾ [إبراهيم] أى : مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجدّ . [القاموس القويم ١/٢١٩] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ.. (٥١) ﴾ [يوسف]

وقد صرف الله عنه الشيطان الذى يتكفل دائماً بالغُواية ، وهو لا يدخل أبداً فى معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خَلْق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ(١) أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز - هو كشيطان - عَن غوايته ، ولا يجرؤ على الاقتراب منه .

والشاهد الذى من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال :

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ(٢) مِن دُبُرٍ(٣) فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ [يوسف]

---

(١) أغواه : أضله وأوقعه فى الغىّ والضلال . قال تعالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ..(٦٣) ﴾ [القصص] أى : أضللناهم كما ضللنا . وغوى يَغْوى غياً غواية : انهمك فى الجهل وهو ضد الرشد . قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦) ﴾ [البقرة] وغوي : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . والغاوى : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾ [الشعراء] أى : الضالين المنهمكين فى أعمال الجهل . [القاموس القويم ٢/٦٤].

(٢) قد الثوب : شقَّه . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] . والقدَّة : القطعة المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة فى الرأى مع مجموع الأمة كأنها قُدَّتْ وقُطعت منها. قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) ﴾ [الجن] أى : جماعات مختلفة الرأى جمع قدَّة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

(٣) الدبر : مؤخَّر كل شىء وعقبه وظهره ضد القبل ، قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] أى : من خلف . وولَّى المحارب دبره : كناية عن فراره ، قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] أى : ويفرون . وجمع الدبر أدبار . قال تعالى : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ﴾ [آل عمران] أى : يفرون منكم منهزمين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾ [ق] أى : عقب كل سجود أو عقب كل صلاة . [القاموس القويم ١/٢٢٠] .

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حَقِّ أحد أن يتساءل : هل هَمَّ يوسف بامرأة العزيز ، أم لم يَهِمّ ؟

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ .. (١٦٥) ﴾ [النساء]

أي : لا بُدَّ أن يبعث الحقُّ رسولاً للناس مُؤيداً بمعجزة تجعلهم يُصدِّقون المنهج الذي يسيرون عليه ؛ كي يعيشوا حياتهم بانسجام إيماني ، ولا يعذبهم الله في الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ[1] عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف]

والفحشاء هي الزنا والإتيان ؛ والسوء هي فكرة الهَمِّ ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودتْه عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى

(١) الصرف : رد الشيء من حال إلى حال. وصرف النقود : تغييرها أو إنفاقها . وصرف السجين : أخلى سبيله . وصرف القلوب يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال . قال تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧) ﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] .

مرحلة السُّعَار[1] لحظة أن سبقهـا إلى الباب ؛ فكَّرتْ فى أن تقتله ؛ وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجازى كقاتل[2].

فصرف الحق عنه فكرة القتل ؛ وعـنى بها هنا قوله الحق « السوء » ؛ ولكنى أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهَمّ ، وهى مُقدِّمات الفعل.

ويقـرر الحق سـبحـانه أن يوسف عليـه السـلام من عـبـاده المُخْلصين ، وفى هذا رد على الشيطان ؛ لأن الشيطان قال :

﴿ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وقوله الحق هنا :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف]

يؤكد إقـرار الشيطان أنـه لن يَقْرب عبـاد الله المخلصـين . وهناك «مُخْلصـين » . و « مُخْلَصين » والمخلص هو مَنْ جـاهد فكسب طاعة الله ، والمُخْلَص هو مَنْ كسَب فجاهد وأخلصه الله لنفسه[3] .

وهناك أُناس يَـصِلُون بطاعـــة الله إلى كـرامـــة الله ، وهناك أُناس

(١) السُّعـار : شدة الجوع . يقـال : سُعِر الـرجل ، فهو مـسعور ، إذا اشـتد جوعـه وعطشه . والسـعْر : شـهوة مع جـوع . والسُّعُر : الجنون . وسـعـار العطش : التـهابه . والسـعيـر والساعـورة : النار . وقيل : لهبـها . والسُّعار والسُّعْـر : حرها . [لسان العـرب ـ مادة : سعر] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره أن من بين تأويلات هم يوسف عليه السلام بامرأة العزيز أنه هَمّ بضربهـا ودفعها عن نفسـه ، والبرهان كَفّـه عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قـصدها بالحرام فامتنعت فضربها . [راجع تفسير القرطبى ٣٤٨٨/٤] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً نقياً مُطهرًا ، واسم المفعول « مُخْلَص » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف] أى : الأصفـياء الأتقياء الـمطهرين . وأخلص دينه لله : طهّره وصفّاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) ﴾ [الزمر] . [القاموس القويم ٢٠٢/١] .

يكرمهم الله فيطيعون الله - ولله المثل الأعلى - مُنزَّه عن كل تشبيه ، أنت قد يطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشى فى الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من فضل الله عليك ، أى : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لين وأخْذ ورَد ؛ ينتقل بنا الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا[1] سَيِّدَهَا[2] لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسابقا فى هذا الاستباق ، ونلحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً ؛ وكانت امرأة العزيز قد غلَّقتْ من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) ألفى الشىء : وجده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف] أى : وجداه . [القاموس القويم ٢/١٩٧] .

(٢) ساد قومه يسودهم سيادة : شرُفَ عليهم وراسهم ، فهو سائد وسيد وجمعه سادة : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف] سيدها : زوجها ، وقال تعالى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران] سيداً أى : شريفاً ورئيساً فى الدين والعلم . وقال : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : رؤساءنا من الملوك والأمراء . [القاموس القويم ١/٣٣٤] .

يدلنا على أنها لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهى قد استبقتْ مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهى تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدَّتْ قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشدَّته من قميصه من الخلف ، وتمزَّق القميص فى يدها ، وقد محَّص الشاهد - الذى هو من أهلها[1] - تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

أى : حدثت لهما المفاجأة ، وهى ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام فى شكل سؤال تبريرى للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

ثم حددت العقاب :

﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾ [يوسف]

ويأتى الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام :

(١) وذلك هو قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ [يوسف] .

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ[(1)] شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا[(2)] إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ[(3)] مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)﴾ [يوسف]

وهنا وجد عـزيز مصـر نفسه بين قـولَيْنِ مخـتلفين ؛ قـولها هى باتهام يوسف ؛ وقوله هو باتهامـها ، ولا بُدَّ أن يأتى بمَن يفصِل بين القولين ، وأن يكون له دقَّة استقبال وفَهْم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)﴾

وتأتى كلمة « شاهد » فى القرآن بمعانٍ متعددة .

---

(١) شـهد : دَلَّ بقـول أو فـعل ، وقال تعـالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ..(٢٦)﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ٣٥٨/١] . وقال القرطبى فى تفسيره (٣٤٩٤/٤) : « شهد شاهد من أهلها ، أى : حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٩٤/٤ ، ٣٤٩٥) :
« اختلف فى هذا الشاهد على أقوال :
منهـا : أنه طفل فى المهـد تكلم ، قـال السـهيلى : وهو الصـحيح للحـديث الوارد فيـه عن النبى ﷺ ، وهو قوله : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة ، وذكـر فيهم شاهد يوسف . ومنها : أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة » بتصرف .

(٣) قد الثوب : شقه ، قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ .. (٢٥)﴾ [يوسف] والقدة : القطعة المقـدودة من الثوب ، والجمـاعة المختلفـة فى الرأى مع مجمـوع الأمة كانهـا قُدَّتْ وقُطعت منها ، قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] أى : جماعات مخـتلفة الآراء جمع قدة . [القاموس القويم ١٠٢/٢] .

فهى مرّة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا[1] طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ② ﴾ [النور]

وتأتى مرّة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا .. (٨١) ﴾ [يوسف]

وتأتى « شـهد » بمعنى « حـكم وقضى » أى : رجَّح كلامـاً على كلام لاستنباط حق فى أحـد الاتجاهين . والشاهد فى هذه الحالة وثّق القرآنُ أن قـرابته من ناحيـة المحكوم عليه ، وهو امـرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لَرُدَّتْ شهادته .

وهكذا صـار الموقف رباعـياً : امـرأة العزيز ، ويوسـف ، وعـزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

لأن معنى هذا - والواقع لم يكن كـذلك - أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أقبل عليها ؛ تدلَّى منه ثوبه على الأرض ، فتعثر فيه ، فتمزَّق القميص.

ويتابع الله قول الشاهد :

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ[2] قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾

---

(١) أى : عذاب الزانية والزانى وإيقاع العقـوبة بهما ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ② ﴾ [النور] .

(٢) القمـيص : ما يحـيط بالبدن ، وقـد يسمى شعـاراً وما فـوقه دثار ، وقد يسـمى كل ثوب قميصـاً ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (١٨) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ١٣٣/٢] .

أى : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قُدَّ من الخلف ؛ فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأى قبل أن يشاهد القميص ؛ بل وضع فى كلماته الأساس الذى سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ[1] عَظِيمٌ ۝٢٨﴾

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى :

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُۥ .. ۝٢٨﴾ [يوسف]

يدلُّ على أنه رتَّب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً فى غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدها ، وهكذا جعل الحيثية الغائبة هى الحكم فى القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يوسف]

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به

---

(١) الكيد : مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه ، ومن ذلك قوله : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۝٦٤﴾ [طه] أى : اجمعوا الوسائل التى تكيدون بها . [القاموس القويم ٢/١٨٠] .

مَنْ لا يملك القدرة على المواجهة ، وكَيْد المرأة عظيم ؛ لأن ضعفها أعظم .

وتعود آيات السورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان الزوج :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا(١) وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(٢) ﴿٢٩﴾ ﴾

وبهذا القول من الزوج أنهى الحقُّ سبحانه هذا الموقف الرُّباعي عند هذا الحد ، الذي جعل عزيز مصر يُقرُّ أن امرأته قد أخطأت ، ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر ليكتمه .

وهذا يبين لنا سياسة بعضٍ من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر نشاهده في عصرنا أيضاً ؛ فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبَّى أن يرى أهله في خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغيرُ أهله في مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر في نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمتَ به خصومه أو أعداؤه .

وهنا مَلْحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهي

---

(١) أعرض عن الشيء : ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه . قال تعالى : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء] . [القاموس القويم ١٦/٢] . قال القرطبي : « أي : لا تذكره لأحد واكتمه » . [تفسير القرطبي ٣٤٩٧/٤] .

(٢) الخطأ والخَطَاء : ضد الصواب . وقد خطيء يخطأ خطأ : أذنب مطلقاً أو تعمَّد الذنب . قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يوسف] أي : مذنبين .

لا تزال متغلغلة حتى فى المنحرفين والمتسترين على المنحرفين ، فعزيز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا .. (٢٩) ﴾ [يوسف]

ويقول لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

وهو فى قوله هذا يُقرُّ بأن ذنباً قد وقع ؛ وهو لن يُقرَّ بذلك إلا إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو فى موقف لا يسعه فيه إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ، والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذى فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذى وقعتْ فيه القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور عيوناً تتعسس[1] عليها ، وألسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه يستطيع أن يحمى نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها مهما بلغتْ قدرة صاحبها على التستُّر والكتمان .

وقد تلصص البعض من خدم القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على ألسنة النسوة .

---

(١) أصل العَسّ : الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضى الله عنه أنه كان يعس بالمدينة . أى : يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعسس : اسم منه كالطلب ، وقد يكون جمعاً لعاسٍّ كحارس وحرس . [راجع لسان العرب ـ مادة : عسس] .